



الأوطان ملح الكتابة



د. أمير تاج السر

كاتب وروائي سوداني

«الأوطان ملح الكتابة، الأوطان التي نعيش فيها حتى نشيخ وربما تضيعنا بجفائها، والأوطان التي نهجر منها لسبب أو لآخر ونعود إليها أجساداً بين الحين والحين»

في مقال له يقول أحد الدارسين الغربيين -وقد انبهر بأدب الروائي الياباني الشهير هاروكي موراكامي، وقام بزيارته بالفعل في طوكيو ليقترّب من عالمه أكثر- إن ما يميز موراكامي، ليس سعة خياله ولا مثابرتة الطويلة، وجدّيته في العمل على إنتاج نصوص بمئات الصفحات، ولكن كونه تحس بوجوده في تلك النصوص، ووجود وطنه كله معه.

وقد صحبه موراكامي في جولة خاصة بالسيارة في مدينة طوكيو -كما قال- وكان يشير إلى كل شيء يصادفانه، الجسور والطرق والمارة، امرأة تقف على رصيف، طفل على عربة أطفال مثلاً، ليقول بأنه كتب ذلك ذات يوم، وموجود في رواياته.

هذا الكلام المنمق لا ينطبق بالتأكيد على هاروكي موراكامي وحده، ولا على كتاب اليابان الذين يعرفهم الغرب والذين لا يعرفهم، فقط، ولكن ينطبق على كل من كتب وطناً في نص، في أي بقعة من العالم الفسيح.

وإن كان من حظ موراكامي أن الغرب ارتفع بصيته المحلي كثيراً، وحوله إلى صيت مدو لدرجة أن روائيين غربيين كثراً باتوا يتطلعون إليه باحترام كبير ويتمنون صحبته، ويتزاحم القراء في أي مكان انتظاراً للحصول على نسخة من كتاب جديد يعلن عن صدوره.

وقد ذكر الدارس الذي التقاه أيضاً أن موراكامي يقبع الآن في قلب السياحة اليابانية، إذ توجد نماذج من شخصياته وعبارات كتبها، وحتى أكواب للعصير التي ربما استخدمتها الشخص في نص له، من ضمن ملصقات هذه السياحة.

قد يبدو ذلك الاحتفاء الخيالي غريباً على بلد كاليابان،

عرف ببرمجة الأدمغة وصناعة التكنولوجيا المتطورة وتصديرها، وشعبه كله إما يعمل وإما يستريح قليلاً ليعاود العمل، لكن بالقطع توجد التفاتة للثقافة، وفي هذا البلد يوجد كتاب كبار مثل: أوسامو دازاي ويوكو ميشيما وياسوناري كوباتا، والمخرج الشهير: أكيرو كوراساوا، الذي وصف ذات يوم بأنه أكثر المخرجين شعبية في العالم.

أعود لمسألة الأوطان، لأنها في رأيي الشخصي من يهب الإبداع أولاً وأخيراً، وكل من يكتب أو يرسم أو يصنع شريطاً سينمائياً عن الوطن سيغدو حقيقياً وصادقاً.

ففي زمن الشدة والتبعثر، تبدو الكتابة شديدة ومبعثرة وصادقة، وأنت حين تصف وطناً محطماً تصفه محطماً، وحين تصف الفقراء تصفهم كما يوصف الفقراء، وحين تنتقد سياسياً غير عادل تنتقده بنبرة حقيقية. الكوارث هي الكوارث، والنواح الذي يتقصّد من الحلو هو النواح الحقيقي بكل تأكيد.

وفي زمن الرخاء والاستقرار -على الجانب الآخر- ستغدو الكتابة مستقرة وعامرة بمفردات الحياة المسترخية، هنا سيوصف الليل بأنه ليل العشاق الفرح، وسيوصف النهار مثلاً بأنه نهار الضوء، بلا زيادة ولا نقصان.

في كثير من الأحيان، خاصة في بلادنا العربية تبدو الأوطان جافية بالنسبة لمبدعيها، تبدو الأحضان ضيقة، والنزيف الكتابي بلا ثمن ولا احتفاء، لكن ذلك لا يوقف الإبداع في أي مرحلة من مراحلها، ولا يكون الوطن لا وطناً، حتى بالنسبة للذين هاجروا أو اغتربوا عن بلادهم.

فحين يرسم هؤلاء يرسمون باستدعاء الذكريات،

وحين يكتبون قصيدة أو نصّاً روائياً يكتبونه من إحياء زمن عاشوه في بلادهم، أو متغيرات سمعوا بها، وأجادوا الاحتفاظ بها في الذاكرة، خلافاً للمتغيرات اليومية التي تحيط بحياتهم الجديدة في المهاجر.

وخير مثال لذلك أن روائياً معروفاً مثل الأفغاني خالد حسيني -الذي هاجر صغيراً إلى أميركا ويكتب بلغة وطنه الجديد- لم يخرج في نصوصه عن وطنه الأصلي قط، وكذلك كتاب من الجزائر والمغرب وتونس ومصر وسوريا عاشوا سنوات طويلة في الخارج، وتعيش أعمالهم الإبداعية في وسط الطرق الوعرة لبلدانهم. وحين نقرأ نصّاً للألماني السوري رفيق شامي نقرأ نصّاً سورياً خالصاً، تتسع فيه الشخصيات في الشام بكل خصوصياته.

في زيارة لي لبلدي ذات صيف، جلست مع شاعر كان معلماً في المدارس الابتدائية فيما مضى، والآن بلا وظيفة في بلد لا يحيا فيه الإنسان مسترخياً حتى لو كان يملك وظيفة. كان بلا مال ولا بيت يستقر فيه ولا هندام يميزه، لكنه كان شاعراً حقيقياً، تماماً مثل موراكامي بفارق الشهرة والوطن.

حتى حديثه المر، كان حديثاً ودياً عن وطن لا يضمّر له شراً برغم كل شيء، وبرغم أن عشرات من الشعراء جاؤوا بعده واكتسبوا حظوظاً أكثر من حظه. كل قصائده -بحلوها ومرها، وهجائها ومدحها- كانت قصائد للوطن ومن الوطن.

وأذكر أن ناقداً معروفاً في السودان ذكر مرة في حوار -حين سئل عن كتاب بلاده المهاجرين في المنافي وعن رأيه في كتاباتهم- أن هؤلاء لا ينتمون للوطن في شيء، ما داموا قد اتبعوا خيار الهجرة، وأن عليهم أن يكتبوا عن أوطانهم الجديدة لأنها تمثلهم أكثر.

على الذي يوجد في هولندا -حسب رأيه- أن يكتب عن أجواء هولندا، والذي في أميركا أن يكتب عن مجتمع أميركا، والذي يعيش في الخليج أن يكتب عما يعيشه هناك.

هذا الناقد بلا شك -إن كان يقصد أو لا يقصد- يحاول أن ينزع ثياب الوطن بسهولة عن مفردات ارتدتها منذ

الصغر ولا يمكن انتزاعها أبداً. ولعله يغير تلك النظرة حين يقرأ لجمال محجوب الذي يعيش خارجاً منذ زمن طويل، وكتب عن الوطن مليباً لفوران حليب أرضه الذي رضعه طفلاً، وكذا الزميلة ليلي أبو العلا، وهي حتى في كتابتها لروايات تدور أحداثها في الغرب، إلا أنها روايات سودانية بامتياز.

إذن الأوطان ملح الكتابة، الأوطان التي نعيش فيها حتى نشيخ وربما تضيعنا بجفائها، والأوطان التي نهجر منها لسبب أو لآخر ونعود إليها أجساداً بين الحين والحين، لكن تظل هي الأصل في كتابتنا، في رسوماتنا، في نحتنا، في تطلعاتنا، الشيء الحقيقي الذي لن يميز موراكامي وحده، ولكن يميز كل من خطا في سكة الإبداع في أي زمان ومكان.

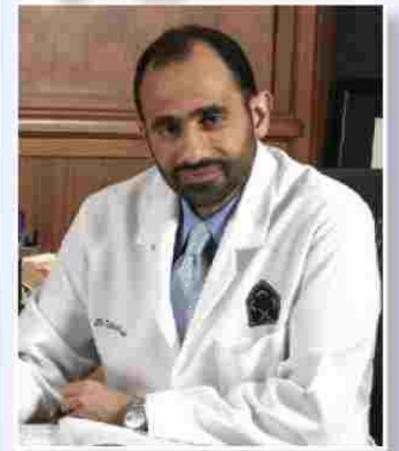


هاروكي موراكامي

«في كثير من الأحيان، خاصة في بلادنا العربية تبدو الأوطان جافية بالنسبة لمبدعيها، تبدو الأحضان ضيقة والنزيف الكتابي بلا ثمن ولا احتفاء، لكن ذلك لا يوقف الإبداع في أي مرحلة من مراحلها»

«الأوطان في رأيي الشخصي من يهب الإبداع أولاً وأخيراً، وكل من يكتب أو يرسم أو يصنع شريطاً سينمائياً عن الوطن سيغدو حقيقياً وصادقاً»

نهضة التعليم



د. وليد فتحي

«و شاء الخالق أن تكون المعجزة همسة في الفار، لم يسمعها الله إلا لنبي آخر الزمان. إنها أول أمر.. أول فرض نزل به القرآن، فأصبحت شعار أمة.. (أمة اقرأ).. إنها ثورة العلم على الجهل.. أمة أدركت أن الأخذ بالعلم من أسمي صور العبادة للرحمن.. أمة أخرجت بالعلم العلماء، فتحقق بهم أسرع وأغرب طفرة حضارية في تاريخ الإنسان. إنها البداية.. إنها النهاية، وكل ما بين البداية والنهاية يذكرنا بأول كلمة نزل بها القرآن.»

يقول المفكر الجليل مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة) «إن الحضارة إنسان وتراب وزمن، وبذلك فإنه عند نقطة الانطلاق ليس أمامنا سوى هذه العوامل الثلاثة وفيها ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي، وكل ما عدا ذلك من مبان وصناعات، يعد من المكتسبات لا من العناصر الأولية».

إن المحور الأساسي للعوامل الثلاثة هو الإنسان، وبه تعرف الحضارة بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتبع لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره.

والمجتمعات إما أن يغلب عليها روح عالم الأشياء أو يغلب عليها روح عالم الأشخاص والأفكار، فإن غلب عليها روح عالم الأشياء، فإنك تجد الاستثمار في الحجر أكثر من الاستثمار في البشر، وإن غلب عليها روح عالم الأفكار، فإنك تجد الاستثمار في البشر أكثر من الاستثمار في الحجر.

وقد أدركت المجتمعات بالدراسات والأبحاث أن أفضل استثمار يكون في المراحل الأولى من حياة الإنسان، أي مرحلة الدراسة، خاصة في المجتمعات التي يشكل الشباب فيها الأغلبية.

وقد أكدت الدراسات التي منها دراسة كل من McCartney في عام 2009 وكذلك دراسة Lawrence Schweinhart في عام 1993م أن كل دولار يستثمر في مراحل التعليم الأولية يدر عائداً على الاستثمار يصل إلى 17 دولاراً أي سبعة عشر ضعفاً.

تؤكد الدراسات أن أهم عامل في نجاح منظومة التعليم في المدارس هو المعلم، وأن المعلم المتمكن الفعال يؤثر على تحصيل الطالب بمقدار 3 إلى 4 أضعاف معلم آخر ضعيف غير فعال، وأن التأثير التراكمي على مدى ثلاثة أعوام يعادل تحصيل 37% مع المعلم غير الفعال، مقارنة بـ 90% مع المعلم الفعال المتمكن.

وفي فيلم وثائقي بعنوان (في انتظار سوبرمان) (Waiting for Superman) أنتج عام 2010م بين أن نفس الطالب بين يدي معلم فعال متمكن يستطيع أن يحصل على ثلاثة أضعاف العلم مقارنة بالمعلم غير الفعال الضعيف، أي أن تحصيل عام واحد مع معلم فعال أفضل من تحصيل ثلاثة أعوام مع معلم غير فعال.

وبذلك أصبح التحدي الحقيقي الذي يواجه النظام

التعليمي أو منظومة التعليم هو كيفية رفع مستوى الملايين من المدرسين، أو: هل هناك طريقة نستطيع بها أن نحرق التعليم لنجعل الطالب يمتلك مفاتيح المعرفة في أي مكان وأي وقت يريد؟ وأن تكون المعلومة متاحة لكل بأفضل طرق إيصالها وشرحها؟ وأن نحمي الطالب من أن يصبح رهينة وضحية معلم غير فعال؟

من أوائل من تنبه إلى هذا الاحتياج ولبى نداء الحاجة شاب أمريكي من أصل هندي اسمه سلمان خان عرف بتفوقه وحصل على درجة الكمال في امتحان السات SAT ويحمل ثلاث درجات من معهد ماساتشوستس MIT (Massachusetts Institute of Technology) وماجستير في الهندسة وعلوم الحاسب الآلي، وكذلك ماجستير من كلية هارفارد للأعمال.

بدأت القصة في أواخر عام 2004م حيث بدأ في تدريس مادة الرياضيات لأقارب له عبر الإنترنت وعندما زاد طلب الأصدقاء والأصدقاء للمساعدة، قرر توزيع الدروس على موقع يوتيوب وأنشأ عام 2006م حساباً على اليوتيوب، وبسبب شعبية الفيديوهات المعروضة وشهادات التقدير التي تلقاها من الطلاب، قرر سلمان ترك عمله كمحلل مالي في صناديق الاستثمار في أواخر 2009م وتفرغ لتطوير قناة أكاديمية خان على اليوتيوب بدوام كامل.

واليوم تعد أكاديمية خان التعليمية أشهر نموذج عالمي في هذا المجال، فتقوم بتوفير التعليم عالي الجودة لأي شخص في أي مكان في العالم. وقد حققت أكثر من 42 مليون زائر، ويوفر موقعها على الإنترنت أكثر من ثلاثة آلاف وستمئة محاضرة صغيرة بمعدل عشر دقائق للحلقة عبر فيديوهات مخزنة على اليوتيوب لتدريس مواد مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والتاريخ والفلك والاقتصاد، إضافة إلى أكثر من 123 وحدة تدريبات آلية مع تقييم مستمر.

وقد ابتعد خان عن أسلوب المدرس الذي يشرح الدرس على السبورة بتقديم المحتوى بطريقة توحى بالجلوس بجانب الطالب والعمل معه على حل المشكلة، فلا يرى الطالب وجه المدرس إنما يرى كتابته ورسوماته البيانية على السبورة الإلكترونية والفيديوهات التعليمية، حيث بينت الدراسات والمشاهدات أن هذه الطريقة هي أكثر الطرق فعالية للتعليم، وبذلك يستطيع الطالب إعادة تشغيل الفيديو حتى يستوعب الموضوع بلا حجل، وأحدث خان تحولاً وثورة حقيقية في العملية التعليمية حول العالم. أحدث خان هذا التحول لأنه انتقل من التعليم التقليدي

التقليدي إلى التعليم التفاعلي النشط والذي بينت الدراسات أنه يزيد من استيعاب الطلاب للمادة بنسبة تتعدى خمسين بالمئة، نظراً لقدرته على تفعيل أجزاء الدماغ المسؤولة عن الفهم والحفظ بطريقة أكثر فعالية، وذلك لانسجامه مع الطريقة الطبيعية الفسيولوجية لانتقال المعلومات في أجزاء الدماغ في عملية التعلم.

ويتطلع خان لأن يجعل من أكاديميته المدرسة الافتراضية الأولى المجانية في العالم، حيث يتاح لأي إنسان أن يتعلم ما يريد بالمجان، وقد استحق خان بذلك أن تصنفه مجلة (التايم) كواحد من مئة شخصية عالمية أثرت بفعالية في حياتنا المعاصرة.

نموذج آخر هذا حذو أكاديمية خان فأنشئ عام 2009م موقع إلكتروني من قبل ريتشارد لادلو (Richard Ludlow) وأطلق عليه اسم أكاديمية الأرض (Earth Academy) والذي يقدم فيديوهات محاضرات مجانية عبر الإنترنت على أيدي نخبة من الأساتذة من جامعات مرموقة مثل:

هارفارد وإم آي تي وبرينستون وميتشجان وستانفورد وكاليفورنيا وباركلي وويل

Harvard.MIT.Princeton University .University of Michigan .Stanford University .University of California .University of California.Berkeley.Yale University

وفي عام 2011م بدأت تركيا بتطبيق أكبر مشروع استثماري في التربية والتعليم في تاريخها بقيمة 7 مليارات، وأطلق عليه اسم مشروع (الفتاح) تيمناً بال قائد العظيم محمد الفاتح، ليتم توزيع القارئ الإلكتروني (آي باد) مجاناً مشمولاً ببرنامج الفاتح على 15 مليون طالب ومليون مدرس وتركيب ألواح ذكية بدلاً من الألواح السوداء في 570000 صف دراسي و42000 مدرسة.

ونقل التعليم في تركيا إلى عصر التقنية، لتصبح الكتب الدراسية كلها مضمنة في جهاز الآي باد بالفيديوهات التوضيحية والصور والخرائط والرسوم البيانية. وبذلك يأتي الطالب إلى المدرسة ومعه الآي باد فقط، لا عشرات الكتب التي ترهق كاهله، وتؤدي لأضرار جسيمة في الظهر والعمود الفقري خاصة في المراحل الأولى كما تبين الدراسات.

أما في عالمنا العربي فقد تم إنشاء أكاديمية التحرير في عام 2012م بعد ثورة 25 يناير بمصر بمجهودات شبابية على غرار أكاديمية خان من خلال جهود الشاب المصري وائل غنيم وشعارها (ثورتنا على المعرفة التقليدية) وتهدف إلى تحرير المعرفة من شكلها التقليدي عن طريق فيديوهات مبتكرة وجذابة ومنهج مجاني على اليوتيوب، مما يساعد على إتاحة العلوم للجميع في أي وقت ومكان وأي جهاز ورفع فعالية التعليم، وهي تعتمد على الأنظمة المفتوحة التي تزدهر بإسهامات جميع المشاركين وتسعى

لأن تصبح النسخة العربية من أكاديمية خان العالمية في جميع التخصصات. نعود للمعلم والذي يعد من أهم عوامل إنجاح المنظومة التعليمية.. ما هو تأثير تطبيق هذه البرامج التعليمية عليه؟ وما هو دوره؟ إنه من الصعب أن نرتقي بملايين المعلمين في بضع سنين إلى المستوى الذي نأمل.

وبما أن هناك مجموعة من المعلمين المتميزين المبدعين ذوي الملكات الخاصة والقدرات الفائقة في التدريس بأسلوبهم الشيق الذي يأسر الطلاب ويوصل المعلومة لهم بكل سلاسة ويسر، وبما أنهم ندر، فإذا تم تفعيل هذه الندر المبدعة في تدريس هذه المواد بأحدث الطرق التقنية والوسائل التوضيحية المتقدمة والفيديوهات وتم تغطية كافة المواد من الابتدائي إلى الثانوي وضمنت في جهاز أي باد، فليس الطالب وحده هو الذي سيستفيد وتزداد فعاليته وتحصيله الدراسي، وإنما الأساتذة أيضاً سيتعلمون..

سيتعلم الأساتذة من الشرح النموذجي، ليصبح هذا الشرح المسجل هو المثال والقدوة لملايين المعلمين، وهذا أكثر فعالية وتأثيراً من أي دورات تدريبية تقليدية، ويصبح المعلم حريصاً على أن يناقش في الأداء مع الشرح النموذجي الذي بين أيدي الطلاب، ويصبح الطالب حارساً على جودة التعليم فلا يقبل بأقل مما يرى، ونقدم كذلك لأولياء الأمور خيار المساهمة والمشاركة في المراجعة والشرح بكل يسر وسهولة دون اللجوء إلى الدروس الخصوصية في المنزل، فالمنهج متاح بين أيديهم في أجمل صورته وأكثرها فعالية بالصوت والصورة.

بل سيصبح المعلم أكثر فعالية، حيث إن الطلبة سيأتون وقد استمعوا إلى الدرس، ويصبح دور المعلم ليس إعطاء المعلومة وإنما تعليم أمور أخرى لا تقل أهمية، وهي الحث والتحفيز والتشجيع على المشاركة والمناقشة والحوار وممارسة التطبيقات العملية على المادة والدعم المعنوي والمادي.

بل ومحاوله إيجاد طرق لتجسيد وتحريك وتفعيل المفاهيم والأفكار الجديدة التي كونتها المعلومة في عقل الطالب، أي تحويل الأفكار من النظرية التجريدية إلى تطبيقات عملية محسوسة وملموسة، وهي بمثابة الاختبار والفحص والامتحان العملي للنشاط للنظريات والأفكار التجريدية، وبذلك تكون قد اكتملت وتحققت دائرة التعلم في دماغ المتعلم من استقبال المعلومة إلى التفكير فيها لتكوين المعرفة وأفكار جديدة إلى تفعيل هذه المفاهيم والأفكار في الدماغ إلى أنشطة عملية حركية.

هناك دراسات عديدة تؤكد أهمية تقييم المعلم ومكافأته بسخاء لا على سنوات خبرته وشهادته وإنما على التحصيل الدراسي وأداء طلبته في الاختبارات الموحدة على مستوى الدولة، وبذلك نكافئ المعلم الفعال المتمكن الذي يحمل اهتماماً حقيقياً بنجاح طلبته، وينجح



في إيقاظ شعلة حب المادة في قلوبهم ويرفع من حماسهم للعلم والتحصيل. إن الطريقة التقليدية للتعليم التي تعتمد على أبادية المنهج وتنتج نسخاً متشابهة من الأشخاص ذوي الأهداف والرؤية النمطية، أصبحت غير مقبولة لهذا الجيل، فهي لا تفتح المجال للاختلاف والإبداع والتعددية في الأهداف والتوجهات للمتعلمين، ولا تضع بالاعتبار اختلاف القدرات والمهارات والاحتياجات من شخص لآخر.

إننا في أمس الحاجة في عالمنا العربي لثورة في التعليم، وليس علينا أن نبدأ من الصفر، بل نبدأ من حيث انتهى الآخرون، خاصة وأن الدراسات والشواهد والنتائج كلها تؤكد نجاح هذه المشاريع التعليمية الرائدة للنهوض بالمنظومة التعليمية طلاباً ومعلمين.

ولن يكون هناك ما يعود على المجتمع بعائد استثماري أعلى من الاستثمار في التعليم الأولي، ففي هذه السنوات يتم تشكيل دماغ الإنسان وتكوين الشبكات العصبية التي بها يستطيع أن يفكر ويحلل ويخطط للمستقبل.

وكل عام يمر على الطالب بين يدي معلم ضعيف غير فعال هو إهدار لعقل الإنسان. إن هذا النوع من الاستثمار إن لم يوضع في تلك السنوات الأولى.. سنوات التشكيل.. تشكيل عقل الإنسان.. عقل الطالب المدرسي.. طالب اليوم.. رجل وامرأة الغد، فلن تجدي عشرات الأضعاف من الاستثمارات لاحقاً لتعويض ما ضاع في السنوات الأولى عندما كان الدماغ أكثر تأهيلاً وتهيئاً للتشكيل والتغيير والتطور المذهل لو أنه أحسن رعايته والاستثمار فيه.

فمتى سنرى في عالمنا العربي ثورات تعليمية كتلك التي يشهدها العالم من حولنا؟

ومتى سندرك أن رأس المال الحقيقي الذي نملكه هو الإنسان الذي يصلق اليوم ويشكل بطرق أقل ما يمكن أن نصفها بأنها متأخرة ومتخلفة عن كثير من شعوب أخرى قد لا تملك ما نملك من ثروات ومقدرات طبيعية واستثمارات واحتياطات مالية.



مشاهدة ومحايا (نهضة التعليم)

اضغط هنا

أو

اضغط هنا